

أمثلة من الترجمة

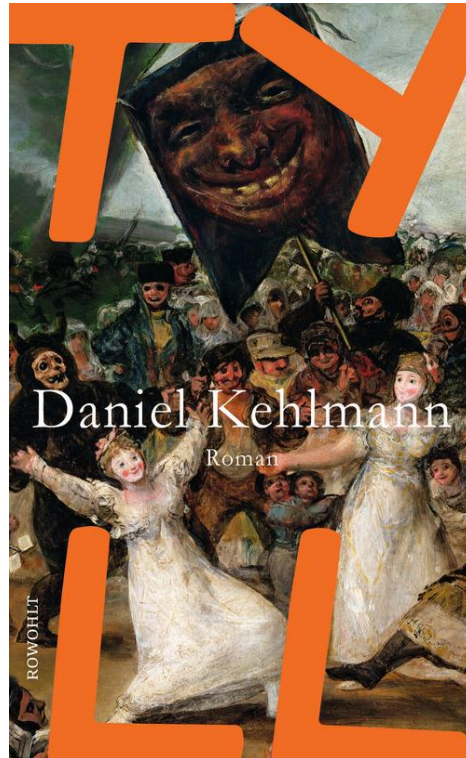
Daniel Kehlmann
Tyll

Rowohlt Verlag, Reinbek bei Hamburg 2017
ISBN 978-3-498-03567-9

صفحات 6-22

دانييل كيلمان
تيل

ترجمة نيفين فائق



تيل

رواية: دانييل كيلمان

ترجمة: نيفين فائق

الأحدية

لم تكن الحرب قد وصلت إلينا بعد. كنا نعيش ما بين الخوف والأمل، ونحاول ألا نجتذب غضب الرب إلى مدينتنا المسورة بالجدران الحصينة، ذات البيوت الخمسة والمئة، والكنيسة، والمقابر، حيث ينتظر أسلافنا القيامة يوماً بعد يوم.

كنا نكثر من الصلاة، لكي نبقى الحرب بعيدا. إلى رب المجد صلينا، وإلى العذراء الرؤوم، صلينا لسيدة الغابة، وللبيضاء الساهرين حتى منتصف الليل، وإلى القديس غيروين، وإلى بطرس حارس البوابة، وإلى يوحنا الإنجيلي، ومن باب الحيلة صلينا كذلك إلى ميلا العجوز، التي كانت - في الليالي القاسية، حين كان يُسمح للشياطين بالتجوال بحرية - تنيه أمام حاشيتها عبر السماوات، كما صلينا إلى آلهة الأزمنة القديمة ذوي القرون، وللأسقف مارتين، الذي كان قد تشارك معطفه مع الشحاذ، إذ كان قد تجمد من البرد، بحيث تجمدا هما الاثنان بعد ذلك، وصارا كلاهما تقيين، لأنه ما نفع نصف معطف في الشتاء. وبالطبع صلينا إلى القديس موريس، الذي فضل الموت مع فيلق كامل، على أن يخون إيمانه بالإله الواحد الحق.

كان جابي الضرائب يأتي مرتين في السنة، ويبدو دائماً متفاجئاً، لكوننا لانزال موجودين. بين الحين والآخر كان بعض التجار يأتون، لكن بما أننا لم نكن نشترى الكثير، فسرعان ما كانوا يشدون الرحال مرة أخرى، وقد كان ذلك مناسباً لنا، فلم نكن بحاجة إلى ما يأتينا من العالم البعيد، ولم نكن نفكر في تلك الأشياء، حتى أتت ذات يوم عربة مغطاة، يجرها حمار، دارت عجالاتها على أرض شارعنا الرئيسي، كان ذلك يوم سبت، وفصل الربيع لم يلبث أن يبدأ منذ فترة قصيرة، وقد فاض الغدير بماء الثلج الذائب، ومن الحقول - التي لم تكن لذلك جافة - كنا قد استخرجنا البذور.

على الطريق كانت هناك خيمة منصوبة من قماش الأشرطة الأحمر. أمامها قرصت امرأة عجوز. بدا جسدها مثل المخلاة، ووجهها كأنه مصنوع من الجلد، وعيناها مثل زرين أسودين. وقفت وراءها امرأة

أصغر سنًا، وجهها منمّش وشعرها داكن. ولكن على مقعد العربة جلس رجل استطعنا أن نتعرف عليه، على الرغم من أنه لم يكن قد جاء إلى هنا من قبل، وعندما تذكره البعض وبادروا بذكر اسمه، تذكره الآخرون كذلك، وهكذا جاءت النداءات من كل جهة، وبأصوات متعددة: "تيل هنا! لقد جاء تيل!" "انظروا هاهو تيل". كان مستحيلاً أن يكون أي شخص آخر.

حتى نحن وصلتنا المنشورات. أتت عبر الغابة، حملتها الريح، وجلبها التجار - في العالم الخارجي كان يُطبع المزيد منها، بكميات تفوق ما يمكن لأي شخص أي حصيه. كانت تتحدث عن سفينة المجانين، وعن سفه الكهنة، وعن البابا الشرير في روما، وعن مارتينوس لوثر الشيطاني، لغاية أخبار فيتنبرغ، والساحر هوريدوس، والدكتور فاوست، والبطل جاوين والمائدة المستديرة، وكذلك أخباره هو نفسه، تيل أولينشبيغل، الذي كان الآن قد جاء إلينا بنفسه. كنا نعرف سترته المرقطة، ونعرف قلنسوته المنبجعة، ومعطفه المصنوع من جلد العجل، كنا نعرف وجهه النحيل، والخدين الأجوفين، وأسنان الأرنب. كان سرواله مصنوعاً من قماش جيد، والحذاء من الجلد الفاخر. إلا أن يديه كانتا تشبهان يدي لص أو كاتب، لم يمارسا أي عمل يدوي قط؛ اليمنى تمسك بالجام، واليسرى بالسوط. كانت عيناه تومضان، وكان يلقي السلام هنا وهناك.

سأل إحدى الفتيات: "وأنت، ما اسمك؟" التزمت الصغيرة الصمت، إذ لم تستوعب، كيف كان شخص مشهور يتحدث إليها.
فقال لها: "حسناً، قوليه!" وبينما راحت تتلعثم، وهي تقول إن اسمها مارتا، لم يبدر منه سوى ابتسامة، كأنما كان يعرف ذلك مسبقاً.

ثم سأل باهتمام، كأنما كان الأمر يهيمه: "وكم عمرك؟"
فتتحنحت وأخبرته به. خلال الإثني عشر عاماً من عمرها لم تكن قد رأت عينين مثل عينيه. فمثل هذه العيون قد توجد في المدن الحرة داخل الإمبراطورية، وفي بلاطات العظماء، أما هنا فلم يأت إلينا يوماً شخص له مثل هذه العيون. لم تكن مارتا تعلم، أن مثل هذه الطاقة، ومثل خفة الروح تلك يمكن أن تنطق عبر وجه شخص ما. يوماً ما سوف تحكي أنها كانت قد رآته بنفسها، لزوجها، و بعد ذلك بكثير لأحفادها، الذين لن يصدقوا، إذ أنهم سوف يعتبرون أولينشبيغل مجرد شخصية من الأساطير القديمة.

ومالبتت العربية تمضي، حتى كانت نظراته قد اتجهت لمكان آخر، لآخرين على أطراف الطريق. وتردد النداء مجددًا في الشارع: "جاء تيل"، ومن النوافذ: "تيل هنا"، ومن ساحة الكنيسة التي كانت العربية تمر بها وقتئذٍ: "ها هو تيل هنا"، وجعل هو السوط يدوي، ونهض.

بسرعة البرق صارت العربية هي خشبة المسرح. طوت المرأتان الخيمة، وعقدت الأصغر سنًا شعرها، ووضعت عليه إكليلاً صغيرًا، وتسربلت بقطعة قماش أرجوانية، ووقفت العجوز أمام العربية، رفعت صوتها وبدأت تنشد على أنغام القيثارة. كانت لهجتها تشبه لهجة الجنوب، لهجة مدن بافاريا الكبيرة، ولم يكن من السهل فهمها، لكننا فهمنا مع ذلك، أن الأغنية كانت تتحدث عن رجل وامرأة، بينهما قصة حب، ولا يستطيعان الوصول لبعضهما، إذ يفصل بينهما مجرى مائي. أخذ تيل أويلنشيغل وشاحًا أزرق، ركع على ركبتيه، قذف به، ممسكًا بأحد أطرافه، فانبسط مُكرِّرًا؛ سحبه وقذف به بعيدًا مرة أخرى، ثم سحبه وقذف به بعيدًا مرة أخرى، وبينما هو راکع على ناحية، والمرأة على الناحية الأخرى، والأزرق يموج بينهما، بدا بالفعل كأنما جرى الماء بينهما بالفعل، والأمواج تتعالى بعنف صعودًا وهبوطًا، وكأنه من المستحيل لأي سفينة أن تبحر عبرها.

عندما قامت السيدة ونظرت مرتاعة إلى تلك التموجات، أدركنا فجأة، كم كانت جميلة. وبينما كانت تقف هنا، رافعة ذراعيها إلى السماء، لم تعد تنتمي إلى هاهنا، ولم يعد أحد منا قادرًا على أن يرفع عنها عينيه. لم تكن نر سوى من زاوية العين، كيف كان حبيبها يقفز، ويرقص، وينطلق، ويلوح بسيفه، ويحارب التنانين، والأعداء، والساحرات، والملوك الأشرار، عبر الطريق الوعر إليها.

استغرق العرض حتى بعد الظهيرة. ولكن بالرغم من علمنا بأن ضروع الأبقار تؤلمها، إلا أن أحدًا منا لم ينفذ صبره. ظلت العجوز تقدم عرضها ساعة بعد أخرى. بدا الأمر مستحيلًا أن يحفظ أحد هذا الكم من الأبيات عن ظهر قلب، وقد راود بعضًا منا الظن، أنها كانت تبتدعها أثناء الغناء. في هذه الأثناء لم يهدأ جسد تيل أويلنشيغل قط، بل إن حذاه بدا وكأنه لا يكاد يلامس الأرض؛ كلما كانت عيوننا تقع عليه، كان هو قد تواجد مجددًا في مكان آخر على خشبة المسرح الصغيرة. في النهاية حدث سوء تفاهم؛ كانت المرأة الجميلة قد هيأت السم لكي تقتل نفسها، حتى لا تضطر إلى أن تتزوج من الوصي الشرير، لكن الرسالة التي تشرح فيها كل شيء ضلت الطريق إليه، وعندما وصل هو - العريس الحقيقي، توأم روحها - أخيرًا وليس آخرًا، إلى جثمانها الساكن، أصابه الهلع كالصاعقة. تسمر أمامها وقتًا طويلًا كالمجمد. وأصاب العجوز الصمت. ثم سمعنا نحن صوت الريح، وخوار الأبقار آتية باتجاهنا. لم يعد أحد يصدر نفسًا.

في النهاية سحب السكين وطعن نفسه في الصدر. كان الأمر مذهلًا، فقد انغرس النصل في لحمه، تدرج وشاح أحمر من ياقته كأنه مجرى الدم، فجاءته حشرجة الموت إلى جوارها، ثم ارتجف، ثم رقد لا

يحرك ساكنًا. كان قد مات. ارتجف رجفة أخرى، ثم اعتدل جالسًا، فعاد وخرّ من جديد. ارتجف رجفة أخرى، ثم رقد لا يحرك ساكنًا، وهذه المرة للأبد. انتظرنا. بالفعل. للأبد.

وبعد ثوانٍ استيقظت المرأة ونظرت إلى الجثمان الميت إلى جوارها. في البداية أصابها الذهول، ثم راحت تهزه، حتى أدركت الأمر فعاد لها الذهول، ثم بكّت، كأنما لم يعد هناك خير على الأرض.

ما هي إلا ثوانٍ واستيقظت المرأة، ونظرت إلى الجثمان الميت إلى جوارها. في البداية أصابها الذهول، ثم راحت تهزه، ثم أدركت الأمر فعاد لها ذهولها، ثم بكّت، كأنما لم يعد هناك خير على الأرض. ثم أخذت سكينه وقتلت نفسها هي أيضًا. مرة أخرى أبهرنا الأداء الذكي، واختفاء النصل في عمق صدرها. حينئذٍ لم يبق سوى العجوز، فاستكملت تلاوة بعض الأبيات، التي لم نكد نفهمها بسبب اللهجة. هكذا كان العرض قد انتهى، وكان الكثيرون منا لا يزالون يبكون، بينما كان الميتان قد قاما بالفعل منذ فترة وانحنيا تحية للجمهور.

لكن ذلك لم يكن كل شيء. كان لا يزال يتعيّن على الأبقار أن تنتظر مزيدًا من الوقت، لأنه بعد المأساة جاءت الفكاهة. قرعت العجوز الطبل، وصقّر تيل أولينشبيغل بنايه، ورقص مع المرأة الشابة - التي لم تعد تبدو بهذا الجمال على الإطلاق - إلى اليمين، وإلى اليسار، وإلى الأمام ثم إلى الوراء مجددًا. أخذًا يطوّحان بأذرعهم إلى أعلى، وتطابقت حركاتهم إلى حد كبير، كأنما لم يكونا شخصين، بل كأن كل منهما انعكاس لصورة الآخر في المرأة. كنا نجيد الرقص إلى حد ما، فقد كنا نحتفل كثيرًا، لكن أحدًا منا لم يكن باستطاعته أن يرقص مثلهما؛ عندما كان المرء ينظر إليهما، كان الأمر يبدو، كأن جسم الإنسان لا وزن له، وكأنما لم تكن الحياة حزينة وقاسية. هكذا لم تبقنا أقدامنا نحن أيضًا على الأرض، بدأنا نهتز، ونثب، ونقفز، وندور.

ومع ذلك فقد توقف الرقص فجأة. نظرنا لاهئين إلى العربية، التي كان تيل أولينشبيغل يقف عليها الآن وحيدًا، فلم نعد نرى المرأتين. راح يرتّل قصيدة ساخرة عن ملك الشتاء المسكين الغبي، وعن أمير المقاطعة، الذي اعتقد أن بوسعه أن يهزم القيصر، ويتسلم عرش براغ من البروتستانت، إلا أن مُلكه كان قد ذاب قبل ذوبان الثلوج. كذلك غنى عن القيصر، الذي كان دائمًا ما ينتابه الشعور بالبرد وقت الصلاة، ذلك الرجل القصير، الذي ارتعد في هوفبورغ بفيينا أمام السويديين. ثم بعدها غنى عن ملك السويد، أسد الليل، القوي كالدب، لكن ماذا نفعته قوته أمام الرصاصة التي أودت بحياته في لوتسن، كأنه مرتزق بسيط، هكذا وانطفأ نورك، وضاعت روح الملك، وضاع الأسد. ضحك تيل أولينشبيغل، وضحكنا نحن أيضًا، لأنه كان من المستحيل مقاومته، ولأنه كان شعورًا جيدًا أن نتذكر أن الكبار يموتون، بينما نحن لانزال على قيد

الحياة. ثم غنى بعد ذلك عن الملك في أسبانيا، ذي الشفة السفلى الغليظة، الذي اعتقد أنه يحكم العالم، على الرغم من أنه كان مفلسًا كالدجاجة.

من فرط الضحك، لم ندرك، سوى بعد مرور بعض الوقت، أن الموسيقى قد تغيرت، وأنه لم تعد فيها نبرة السخرية التي كانت. كان حينئذٍ يرتل ترنيمة عن الحرب، عن ركوب الخيل الجماعي، وعن صلصلة الأسلحة، وصدافة الرجال، وعن الاختبار وقت الخطر، وعن هتاف الرصاص المصفّر. غنى عن حياة الجنود المرتزقة، وعن جمال الموت، غنى عن نشوة السعادة التي تنتاب كل من لاقى العدو على فرسه، فشعرنا نحن جميعًا بخفقات قلوبنا تتسارع، أما الأمهات فقد نظرن بفخر إلى أبنائهن. فقط لويزا العجوز، هي التي بقيت تهسهس وتهز رأسها، وتغمغم بصوتٍ عالٍ، حتى أن من كانوا يقفون إلى جوارها قالوا لها إن عليها أن تعود إلى البيت. فما كان منها إلا أن رفعت صوتها أكثر، وصاحت متسائلة، عما إذا لم يكن أحد يفهم ما الذي كان يفعله هنا من الأساس. قالت إنه يستجلب الأمر، يستحضره إلى هاهنا!

لكن عندما هسهسنا ولوّحنا بالنفي، وهددناها، دلفت هي - والحمد لله - وأكمل هو العزف على نايه، وكانت تلك المرأة تقف إلى جواره، وبدت حينئذٍ في هيئة ملكية، كشخص ذي مكانة عالية. غنت بصوت نقي عن الحب، الذي كان أقوى من الموت. غنت عن حب الآباء وعن حب الرب، وعن الحب بين الرجل والمرأة، وهنا تغير شيء ما مرة أخرى، وصار شيء في الإيقاع أسرع، وصارت النغمات أكثر حدة ووضوحًا، وفجأة صارت الأغنية تتناول موضوع حب الجسد، الأجسام الدافئة، والتقلب بين الأعشاب، وعبق عُريك، وأردافك الكبيرة. ضحك الرجال ثم انخرطت النساء معهم في الضحك، أما الأعلى صوتًا فكانت ضحكات الأطفال. حتى مارتا الصغيرة ضحكت. كانت قد تسللت إلى الصفوف الأمامية، وكانت تفهم الأغنية جيدًا جدًا، حيث كانت قد سمعت أمها وأبوها في الفراش كثيرًا، كما سمعت الخدم بين القش، وأختها مع ابن النجار في العام السابق - كانا قد هربا معًا ليلاً، لكن مارتا تسللت وراءهما، ورأت كل شيء. على وجه الرجل المشهور ارتسمت ابتسامة شهوانية عريضة. كانت طاقة قوية قد تولدت بينه وبين تلك المرأة، ألحت عليه وعليها بقوة، دفعت بجسديهما تجاه بعضهما، ولم يكدا يمكن مقاومة أن يتحسسا بعضهما أخيرًا. ولكن بدا أن الموسيقى التي كان يعزفها حالت دون ذلك، إذ تحولت هي - كأنما عن طريق الخطأ - إلى امرأة أخرى، وكانت اللحظة قد انقضت، ولم تعد النغمات تسمح بالأمر. كانت تلك ترنيمة **حمل** **الله المقدس**. ضمت المرأة يديها في ورع، **الحامل خطايا العالم**، فتراجع هو مبتعدًا، وبدا كلاهما مصدومًا من مدى الشهوانية التي كادت تدركهما للتو، كما كنا نحن أيضًا مصدومين، فرحنا نرسم الصليب على صدورنا، لأننا تذكرنا أن الله كان يرى كل شيء، ولا يرضى عن الكثير. خر الاثنان على ركبهما راكعين،

وتبعناهما نحن كذلك. ثم أنزل هو الناي، ونهض واقفًا، فتح ذراعيه، وطلب النقود والطعام. إذ كان وقت الاستراحة قد حان. قال إن الأفضل سيأتي فيما بعد، إذا ما أُعطيَ مبلغًا جيدًا من المال. أمسكنا بحقائبنا مأخوذِين. دارت المرأتان، كلٌّ بكوب صغير. أخرجنا الكثير، بحيث صارت النقود المعدنية تصلصل وتتقافز. كلنا أخرجنا: كارل شون-كنشُت أخرج، ومالته شوبف أخرج، وشقيقته اللثغاء أخرجت، وحتى عائلة موللر - التي كانت فيما عدا ذلك معروفة بالشح - أخرجت، وهابنريش ماتر عديم الفائدة، وماتياس فولزيغين، كلاهما دفعا كثيرًا للغاية، مع أنهما كانا عامليْن، ويعدا نفسيهما أفضل من الجميع. دارت مارتا بحذر حول العربة المغطاة. هناك كان تيل أولينشبيغل جالسًا، ساندًا ظهره على إطار العربة، يشرب من إبريق كبير. وإلى جواره وقف الحمار.

قال: "تعالى هنا".

اقتربت بقلب نابض.

مد لها يده بالقدح، وقال: "اشربي"

أخذت القدح. كان طعم البيرة مرًا وثقيلاً.

- "الناس هنا، هل هم صالحون؟"

أومأت.

- "مسالمون، يساعدون بعضهم البعض، يتفاهمون فيما بينهم، يحبون بعضهم، هل هم أناس من

هذا النوع؟"

رشفت رشفة أخرى، وقالت: "نعم".

فقال: "حسنًا".

فقال الحمار: "سوف نرى".

أفلتت مارتا القدح من شدة الفرع.

فقال الحمار: "البيرة الطيبة. أيتها الطفلة الحمقاء!"

قال تيل أولينشبيغل: "يسمون هذا الكلام من البطن. يمكنك أن تتعلميه أنت أيضًا، إذا كنت تريدين".

فقال الحمار: " يمكنك أن تتعلميه أنت أيضًا".

التقطت مارتا القدح وخطت خطوة إلى الوراء.

تمددت بقعة البيرة ثم انكشمت مرة أخرى، امتصت الأرض الجافة البلل.

- "جديًا. تعالي معنا. ها أنت الآن تعرفيني، أنا تيل. وأختى الواقعة هناك اسمها نييلي. هي ليست

أختى. أما العجوز فلا أعرف اسمها. والحمار هو الحمار".

حدقت مارتا في وجهه.

قال الحمار: "سوف نعلمك كل شيء. أنا ونيبيلي والعجوز وتيل. وسوف تخرجين من هنا. فالعالم كبير. بإمكانك مشاهدته. أنا لا أدعى الحمار هكذا فحسب، بل إن لي اسم آخر، أنا أوريجينيس".

● "لماذا تعرضان ذلك عليّ أنا؟"

أجاب تيل أولينشبيغل: "لأنك لست مثلهم. أنت مثلنا نحن".

مدت مارتا يدها له بالقدح، لكنه لم يأخذه، فوضعتة على الأرض. كان قلبها ينبض. فكرت في أبيها، وفي أختها، وفي البيت، الذي كانت تعيش فيه، وفي الهضبة بالخارج خلف الغابة، وفي هزيز الريح بين الأشجار، والذي لا تستطيع أن تتخيل أن يكون له الرنين نفسه في مكان آخر. كما تذكرت اليخنة التي كانت أمها تطبخها.

ومضت عينا الرجل المشهور، عندما قال باسمًا: "تذكرني القول القديم، إن شيئًا أفضل من الموت

يمكن العثور عليه في كل مكان."

هزت مارتا رأسها.

فقال: "حسنًا".

كانت تنتظر، لكنه لم يقل شيئًا آخر. ولم تكن بحاجة سوى إلى لحظة، لكي تدرك، أن اهتمامه بها قد خبا بالفعل.

دارت إذن مرة أخرى حول العربة، عائدة إلى أولئك الناس، الذين كانت تعرفهم ... إلينا نحن. كنا الآن حياتها، فلم تعد هناك حياة أخرى. جلست على الأرض. أحست بفراغ داخلي. لكن عندما نظرنا إلى الأعلى، فعلت ذلك هي الأخرى، لأننا جميعًا لاحظنا، أن شيئًا ما كان معلقًا في السماء. خط أسود شق زرقاة السماء. رمشت عيوننا. كان ذلك حبلًا.

كان مربوطًا من جهة في نافذة الكنيسة، ومن الجهة الأخرى في سارية علم، كانت تبرز من السور بجوار نافذة مبنى البلدية، حيث كان المأمور يعمل، وإن كان ذلك شيئًا نادر الحدوث، لأنه شخص كسول. وقفت تلك المرأة الشابة على النافذة، لابد أنها كانت قد عقدت الحبل لتوها، ولكننا كنا نتساءل: كيف شدته؟ فلا يمكن للمرء إلا أن يكون هنا أو هناك، على هذه النافذة أو تلك، وقد يمكنه بسهولة أن يربط الحبل، ويتركه يتدلى، لكن كيف يمكن أن يرتفع به مجددًا إلى النافذة الأخرى، لكي يوثق الناحية الأخرى؟ فغرنا أفواهنا. لوهلة بدا لنا أن الحبل في حد ذاته هو القطعة الفنية، وكأن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من ذلك. حط عصفور عليه، وقفز قفزة صغيرة، أعدّ جناحيه، ثم راجع نفسه وظل جالسًا.

حينئذٍ ظهر تيل أولينشبيغل هناك على نافذة برج الكنيسة. لَوَّح بيده، ثم قفز على حافة النافذة، وخطى على الحبل. فعل ذلك، كأنه أمر هين. فعله كأنه يخطو خطوة مثل أي خطوة أخرى. لم ينطق أحد منا، لم يصيح أحد، لم يتحرك أحد، كنا قد حبسنا أنفاسنا.

لم يترنح، ولم يبحث عن التوازن، بل مشى ببساطة. كانت يدها تتأرجحان، وكان يمشي كما يمشي المرء على الأرض، فقط بدا الأمر أكثر بهاءً، إذ كان يضع قدمًا أمام الأخرى بدقة. كان يتعين على المرء أن يدقق النظر، حتى يلاحظ حركات الأرداف البسيطة، التي كان يجابه بها تمايل الحبل. قفز قفزة، فثنى ركبتيه برهة فحسب، وهو ينهض مرة أخرى. بعد ذلك تمشى، في المنتصف، ويدها مطويتان على ظهره. ارتفع العصفور، لكنه رفر ف فقط بجناحيه بضعة مرات، ثم عاد وجلس مرة أخرى، وأدار رأسه؛ كان الصمت يسود، لدرجة أننا سمعنا زقزقته وصريره. وبالطبع سمعنا صوت أبقارنا.

استدار تيل أولينشبيغل فوق رؤوسنا، بسرعة وبأريحية، ليس كشخص في خطر، وإنما كشخص يتطلع حوله في فضول. القدم اليمنى كانت تبقى باستمرار على الحبل، أما اليسرى بشكل عرضي، والركبتان مثبتتان قليلاً، وقبضتا اليدين مثبتتان على الجانبين. وكلنا – أي كل الناظرين إلى الأعلى – أدركنا فجأة معنى الخفة. أدركنا كيف يمكن أن تكون الحياة بالنسبة لشخص، يفعل حقًا ما يشاء، ولا يعتقد في شيء ولا يطيع أحدًا؛ أدركنا كيف يمكن أن تكون، إذا ما كان المرء مثل هذا الشخص، وأدركنا أننا لن نكون أبدًا أناسًا من هذا النوع.

- "اخلعوا أحذيتكم!"

لم نعرف إن كنا قد فهمناه حقًا.

فصاح: "اخلعوها! كلُّ يخلع الحذاء الأيمن. لا تسألوا، افعلوا فحسب. سوف يكون الأمر مسليًا. تقوا بي، اخلعوها. كبارًا، وصغارًا، سيدات، ورجال. الجميع. الحذاء الأيمن." ظللنا نحملق فيه.

- "ألم يكن الأمر مسليًا حتى الآن؟ ألا تريدون المزيد؟ سأريكم المزيد. اخلعوا أحذيتكم، كلُّ يخلع

الحذاء الأيمن. هيا!"

كنا بحاجة إلى بعض الوقت، لكي نتحرك. هكذا الأمر دائمًا معنا، فنحن أناس متأنون. كان الخباز أول من نَقَدَّ الأمر، ثم انضم إليه مألته شوبف، ثم كارل لام، ثم تبعته زوجته، ثم أطاعه العمَّال، الذين كانوا يحسبون أنفسهم دائمًا الأفضل، ثم فعلناها نحن جميعًا، كل واحد فينا، ماعدا مارتا. نكزتها تينه كروجمان - الواقفة إلى جوارها - في كوعها، وأشارت لها إلى القدم اليمنى، لكن مارتا هزت رأسها، بينما قفز تيل أولينشبيغل قفزة أخرى على الحبل، ضاربًا قدميه ببعضهما في الهواء. كانت قفزته عالية جدًا، لدرجة أنه

احتاج إلى مد ذراعيه عند الارتفاع للأعلى، لكي يحافظ على توازنه – لوقت قصير جدًا، لكنه كان كافيًا، لكي يذكرنا، أنه حتى هو له وزن، وأنه لا يستطيع الطيران.

صاح بصوت مرتفع وواضح: "والآن ارموها. لا تفكروا، ولا تسألوا، ولا تترددوا، سوف يكون ذلك ممتعًا للغاية. فقط افعلوا ما أقوله لكم. ارموها!".

كانت تينه كروجمان أول من فعل. طار حذاؤها وارتفع إلى أعلى، واختفى بين الحشد. ثم طار الحذاء التالي، ثم طارت العشرات، ثم أكثر، وأكثر، وأكثر. ضحكنا جميعًا وصرخنا وصحنا: "انتبه!" و"انحني"، و"هاهي واحدة آتية من هنا!"

كانت متعة كبيرة، ولم يهم أحدًا كذلك، أن البعض قد أصابت الأحذية رؤوسهم. ارتفعت اللعنات، وأطلقت بعض النساء السباب، وبكى بعض الأطفال، لكن الأمر لم يكن سيئًا. حتى مارتا اضطرت لأن تضحك، عندما أخطأ حذاء ثقيل بالكاد الرمية إلى رأسها، بينما أبحر حُفّ منزلي منسوج تحت قدميها. كان معه حق، والبعض وجد الأمر مرهًا فعلاً، لدرجة أنهم رموا الحذاء الأيسر كذلك. كما رما البعض كذلك القبعات، والملاعق، والأباريق، التي كانت تنكسر حيثما شاءت، وبالطبع رما البعض كذلك الحجارة. لكن عندما تحدث صوته إلينا، انحسر الضجيج، وأنصتنا إليه.

- أيها البلهاء".

رمشت عيوننا، كانت الشمس منخفضة. الذين وقفوا إلى الوراء في الساحة كانوا يرونه بوضوح، أما الآخرون فقد بدا لهم مجرد هيكل.

- "أيها المخابيل. أيتها الرؤوس الفارغة. أيتها الضفادع. يا عديمو الفائدة. أيتها المناجذ، والجرذان الحمقاء. والآن أحضروها مرة أخرى."
ظللنا نحملق فيه.

- "أم أنكم أغبي من ذلك؟ لم يعد بإمكانكم أن تحضروها؟ لا تستطيعون؟ رؤوسكم أغبي من ذلك؟" كان يضحك مستهزئًا. طار العصفور إلى أعلى، ارتفع فوق الأسطح، واختفى. نظرنا إلى بعضنا البعض. ما قاله كان قاسيًا؛ لكن قسوته لم تكن تصل إلى درجة عدم احتمالية أن تكون تلك مزحة أخرى، أو دعابة وقحة على طريقته. فقد كان ذلك مكمّن شهرته، إذ كان يعطي نفسه هذا الحق.

سأل: "حسنًا، ماذا؟ ألم تعودوا بحاجة إليها؟ لم تعودوا ترغبون فيها؟ لم تعودوا تحبونها؟ أيها البقر، أحضروا أحذيتكم!"

كان مآلته شوبف الأول. كان طيلة الوقت يشعر أنه ليس بخير، وهكذا مشى حينئذٍ إلى حيث ظن أن حذاءه قد طار. دفع بعض الناس جانباً، زاحمهم، ودفعهم، وانحنى، ونبش بين السيقان. على الجانب الآخر من الساحة فعل كارل شون-كنشت الشيء نفسه، ثم تبعتهما إليزابيت، أرملة الحداد، لكن ليمبكه المسنّ تدخل وصاح عليها أن تذهب بعيداً، قال إن هذا حذاء ابنته. فصاحت عليه إليزابيت - التي كان جبينها لا يزال يؤلمها، إذ أصابه أحد الأحذية - بأن عليه هو أن يذهب بعيداً. قالت إنه لا يزال بإمكانها تمييز حذائها، وإن ابنة ليمبكه لا تمتلك حذاءً مشغولاً بهذا الجمال. وهو ما جعل ليمبكه المسنّ يصيح، بأن عليها أن تبتعد عن طريقه ولا تسب ابنته، وهو ما ردت عليه بدورها صائحة، بأنه لص أحذية قذر. هنا تدخل ابن ليمبكه: "إنني أحذرك!" وفي الوقت نفسه بدأت ليزا شوخ وزوجة الطحان تنتشجران، لأن حذائيهما بدياً فعلاً متشابهين للغاية، تماماً كما كان قياس أقدامهما متطابقاً. كذلك علت الكلمات الصاخبة بين كارل لامّ وزوج أخته، وأدركت مارتا فجأة ما الذي كان يحدث ها هنا، فقرصت على الأرض وراحت تتسلل بعيداً.

كان التدافع، والسباب والارتطامات تجري فوق رأسها بالفعل. انسحب زوج، كانا قد عثرا على حذائيهما سريعاً، لكن الغضب كان قد اشتعل بيننا نحن الآخرين بشدة، حتى بدا كأنه كان مكبوتاً منذ وقت طويل. كان النجار موريتس بلات، وحداد حدوات الأحصنة سيمون كيرن، يتبادلان اللكمات بقبضة اليد، بحيث إذا ما ظن أحد أن الأمر لا يتعلق سوى بالأحذية ليس أكثر، لم يكن يستطيع تفسير الأمر، لأنه في المقابل كان عليه أن يعرف أن زوجة موريتس كانت منذورة لسيمون في طفولتها. كلاهما نرف أنفه وفمه، وكلاهما كان يلهث كالأحصنة، ولم يجرؤ أحد على أن يتدخل. كذلك كانت لوره بيلتس، وإلزا كولشميت قد علقتا معاً على نحو بشع. ولكن في نهاية الأمر قد كانتا تكرهان بعضهما أصلاً منذ وقت طويل، حتى أنهما لم تعودان تعرفان أسباب ذلك. إلا أن الجميع كان يعرف جيداً جداً، لماذا ثارت عائلتنا زملر وآل بيت غرون أنغر على بعضهما البعض؛ كان ذلك بسبب المزرعة المتنازع عليها، ومسألة الميراث القديمة، التي ترجع لأيام شولتهايس بيتر، وكذلك بسبب ابنة زملر وطفلهما، الذي لم يكن من زوجها، وإنما من شون-كنشت. اشتد الغضب في كل مكان كالحمى - أينما كان المرء ينظر، كان هناك صراخ وضرب، كانت الأجساد تتدحرج، حينئذٍ رفعت مارتا رأسها إلى أعلى.

كان هو وقتئذٍ يقف هناك ويضحك. منحنيًا جسده، فمه منفرج تمامًا، وهارًا كتفيه. أقدامه فقط هي التي ظلت ساكنة، بينما كانت أردافه تتذبذب مع أرجحة الحبل. خطر لمارتا أنه ما عليها إلا أن تدقق النظر إليه، لكي تظن إلى سبب فرحته الشديدة لهذا الحد - لكن حينئذٍ ركض رجل باتجاهها، ولم يرها، فأصاب حذاؤه صدرها، وارتطم جسدها على الأرض، وحين أرادت أن تتنفس، بدا الأمر كأن إيرا تخزها. تدحرجت مستلقيةً على ظهرها. كان الحبل والسماء خاويين. كان تيل أويلنشيغل قد اختفى.

استجمعت قواها لتنهض. راحت تعرج بين الأجساد المتشاحنة، المتدافعة، العاضّة بعضها البعض، الباكية، المتناحرة، والتي كان باستطاعتها تمييز بعض الوجوه من بينها، هنا وهناك. عرجت مارّة بالشارع، محنيًا جسدها، منكسة رأسها، لكن تمامًا عندما كانت قد وصلت إلى باب بيتها، سمعت لعلعة العربية المغطاة وراءها. استدارت، فكانت تلك المرأة الشابة - التي كان قد أطلق عليها اسم نييلي - جالسةً على مقعد العربية، وإلى جوارها السيدة العجوز مقرفصة بلا حراك. لماذا لا يوقفهما أحد، لم لا يتتبعهما أحد؟ مرت العربية بمارتا، فظلت محملةً فيها. لا بد أنها كانت الآن سوف تمر بشجرة الدردار، ثم ببوابة المدينة، ثم سترحل. وتمامًا، حين كانت قد وصلت إلى آخر مجموعة من البيوت، ركض خلفها أحدهم بالفعل، بخطى كبيرة بلا عناء. انتصب شعر المعطف المصنوع من جلد العجل حول عنقه، كأنه كائن حي. صاح، حين مر بمارتا: "كنت لأصطحبك معي!" وقبل أن ينعطف الشارع بقليل، لحق بالعربة وقفز عليها. كان حارس البوابة معنا - نحن الآخرين - في الساحة الرئيسية. فلم يوقفهم أحد.

دخلت مارتا على مهل إلى البيت، أغلقت الباب وراءها، وأوصدت قفله. كان الجدي راقدًا إلى جوار الموقد ينظر إليها متشككًا. سمعت الأبقار تزمجر، ومن الساحة الرئيسية أتى صوت صراخنا مدويًا. لكن في النهاية هدأنا. كما كانت الأبقار قد حُلبت قبل حلول المساء. عادت أم مارتا، ولم يكن قد أصابها الكثير سوى بعض السحجات. أما أبوها فكان قد فقد أحد أسنانه، وكانت أذنه مقطوعة، بينما داس أحد على قدم أختها، بحيث ظلت تعرج لمدة بضعة أسابيع بعدها. ومع ذلك فقد جاء النهار التالي، والمساء التالي، واستمرت الحياة. في كل بيت كانت هناك نتوءات، وجروح قطعية، وسحجات، وأذرع ملوئية وأسنان مفقودة، لكن في اليوم التالي مباشرةً، عادت الساحة الرئيسية نظيفة كما كانت، وكان كلُّ يلبس حذاءه.

لم نتحدث بعدها قط عمّا كان قد حدث. ولم نتحدث كذلك عن أولينشبيغل. التزمنا بذلك، من دون اتفاق مسبق، حتى هانس زملر- الذي كان أكثر من تأثر بالإصابة، بحيث تعيّن عليه منذ ذلك الحين أن يلزم الفراش، وألا يأكل سوى الحساء السمين - تعامل مع الأمر كأنما لم يكن هناك شيء مختلف عن ذي قبل. كذلك أرملة كارل شون-كنشت، الذي دفناه في اليوم التالي في المقبرة، كانت تتصرف، كأنما كانت تلك ضربة القدر، وكأنما لم تكن تعرف جيدًا لمن كانت السكين المغروسة في ظهره. الحبل فقط هو الذي ظل معلقًا فوق الساحة لأيام، يرتعش في مهب الريح، وتحول إلى محطة لهبوط العصافير الصغيرة، وطيور السنونو، إلى أن تمكن القس - الذي كان قد تم الإيقاع به في الشجار بعنف، إذ لم نكن نحب خيلاءه وغطرسته - من أن يصعد مرة أخرى إلى أعلى برج الكنيسة ليقطعه.

لكننا أيضاً لم ننس. ما حدث ظل بيننا. كان موجوداً، أثناء جمعنا للمحصول، وكان موجوداً، عندما كنا نتفاوض حول محصول الذرة، وعندما كنا نتجمع لحضور قداس الأحد، حيث صارت تعبيرات وجه القس مختلفة؛ نصف دهشة، ونصف خوف. وكانت توجد بالأخص عندما كنا نحتفل بالأعياد في الساحة، وحين كانت الوجوه تتلاقى أثناء الرقص. ساعتها كان يبدو لنا كأن الهواء يصير أثقل، والماء طعمه مختلف، وكأن السماء – منذ أن تعلق فيها ذلك الحبل - لم تعد هي نفسها.

وبعد عام، وصلت الحرب بالفعل إلينا. ذات ليلة سمعناها تصهل، وقهقهت أصوات كثيرة بالخارج، وما لبثنا أن سمعنا ضجيج الأبواب المتكسرة، وقبل أن نخرج إلى الشارع، متسلحين بمعازق القش وبالسكاكين عديمة الفائدة، كانت السنة اللهب قد اندلعت.

كان المرتزقة أكثر جوعاً من المعتاد، وكانوا قد شربوا المزيد من الخمر. منذ فترة لم يكونوا قد وطأوا أي مدينة، تقدم لهم مثل هذا كله. لويزا العجوز، التي كانت قد غطت في النوم، ولم يكن لديها هذه المرة أية وساوس، ماتت في فراشها. كما مات الكاهن، عندما تموضع أمام بوابة الكنيسة ليحميها. وماتت ليزا شوخ، أثناء محاولتها تخبئة بعض العملات الذهبية. أما الخباز، والحداد، وليمبكه الميسن، وموريتس بلات ومعظم الرجال الآخرين، فقد ماتوا أثناء محاولتهم إنقاذ نساتهم. والنساء ماتت هكذا أيضاً كما تموت النساء عادةً في الحرب.

وقد ماتت مارتا كذلك. تمكنت بالفعل من رؤية سقف الغرفة، وهو يتحول إلى لهيب أحمر فوقها، شمت رائحة الدخان، قبل أن يدركها بقوة، بحيث لم تعد تميز أي شيء، وقد سمعت أختها تصيح طلباً للمساعدة، بينما تحلل المستقبل الذي كان لا يزال أمامها: الرجل الذي لن تحصل عليه، والأبناء الذين لن تربيهم، والأحفاد الذين لن تحكي لهم أبداً عن مهرج مشهور قابلته ذات نهار ربيعي، وأبناء هؤلاء الأحفاد، وكل البشر الذين لن يعودوا موجودين بعد الآن. بهذه السرعة تمضي الأمور، هكذا خطر لها، كأنها توصلت إلى سر كبير. وعندما سمعت دعائم السقف تتكسر، خطر لها أن تيل أويلنشيغل ربما يكون الوحيد الآن، الذي يمكنه أن يتذكر وجوهنا، والذي قد يعرف أننا كنا موجودين.

بالفعل لم ينج سوى هانس زملر الأعرج، الذي لم تشتعل النيران في بيته، والذي لم يره أحد، لأنه لم يكن قادراً على الحركة، وكذلك إلزا تسيغلر وباول غرون أنغر، اللذان كانا قد ذهبنا معاً سراً إلى الغابة.

عندما عادا في الفجر بثياب مخربطة وشعر منكوش، فلم يجدا سوى الحطام، يموج تحتها الدخان، ظنا لوهلة أن الله يعاقبهما على خطيئتهما، بأن أصابهما بشبح التخاريف. انتقلا سوياً إلى الغرب، وعاشا سعيدين لوقت قصير.

أما نحن، الآخرون، فإننا نُسمع هناك، حيث كنا نعيش ذات يوم، أحياناً بين الشجر. نُسمع بين العشب، وفي نقيق الصراصير، نُسمع عندما يضع المرء رأسه على ثقب فرع شجرة الدردار، وبين الحين والآخر يهياً للأطفال أن بوسعهم رؤية وجوهنا في ماء الغدير. لم تعد كنيستنا قائمة، لكن الحصي الذي كانت المياه قد صقلتها ببيضاء مستديرةً، فهي نفسها كما هي، مثلها مثل الأشجار التي ظلت كذلك هي نفسها. أما نحن فننتذكر، حتى وإن لم يكن أحد يتذكرنا، حيث أننا لم نتصالح بعد مع مسألة ألا نكون. لا يزال الموت جديداً علينا، والأشياء التي تخص الأحياء، لم نشعر بعد بعدم اكتراث تجاهها. لأن هذا كله لم يمضِ عليه وقت طويل.

[...]